المسلم هو النموذج الأكمل للإنسان

بقلم الأستاذ الدكتور

محمد عبد المنعم خفاجة

عميد كلية اللغة العربية الأسبق

والأستاذ المتفرغ بجامعة الأزهر

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

المسلم هو النموذج الأكمل للإنسان

-١-

آمنت بالله ! ..

آمنت بالإسلام ! ..

آمنت بالقرآن ! ..

آمنت بأن الله الذى أنزل المعجزة على رسوله : محمد بن عبد الله ، هو الذى صنع المعجزات الكبرى فى تاريخ الإسلام .

لو أن إنساناً جاء ليقول لنا اليوم :

إن أمة مسلمة فقيرة قليلة العدد ؛ لا تعرف التقدم الحضارى ولا التكنولوجيا الحديثة ، وليس فيها صناعات ، ولم تتأصل فيها التقاليد العسكرية ، وليست عندها جيوش حربية متطورة ، كالأردن مثلاً ، وقفت أمام أعظم دولة معاصرة كأمريكا وهزمتها ، ووقفت أمام قوة عالمية كبرى كروسيا ودمرتها ...

لما صدقناه .. ولقلنا : إن ذلك خرافة ، ما بعدها من خرافة .. وأسطورة من نسج الخيال وحده .. فلو حدث ذلك لكان معجزة من الله ، وعملاً خارقاً من نسج السماء .

ولقد حدث ذلك فى التاريخ ، بعد نزول الرسالة بقليل :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ففى خلال ما لا يزيد عن أربعين عاماً من بدء نزول الوحى على : محمد بن عبد الله فى غار حراء بمكة ؛ كان الإسلام قد طوى - تحت سنابكه - أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ ؛ وهى الإمبراطورية الفارسية ، واستولى على أملاك الإمبراطورية الثانية وهى الإمبراطورية الرومانية الشرقية ؛ ففتح مصر والشام وليبيا والمغرب كله ، واجتاح سهول آسيا الصغرى ، ووقف على أبواب العاصمة الرومانية " بيزنطة " التى لم يبق لها إلا أجزاء قليلة فى أوروبا على شاطىء البحر الأسود والبحر الأبيض .

ولقد كان انبعاث الإسلام - على هذه الصورة الغربية - عملاً معجزاً ، حطم كل الأقيسة التاريخية !.. كما يرى المؤرخ الإنجليزي المعاصر " توينبى " ووقف حياله العالم - منذ ذلك التاريخ ، حتى اليوم - مبهوراً مذهولاً ، لا يدرى : كيف حدث ، ولا كيف كان ؟!

فلقد أصبحت الدولة الإسلامية - بعد فتح العراق وفارس والشام ومصر وغيرها ، وارثة للإمبراطورية الساسانية ، مثلما ورثت ملك الدولة الرومانية !.. ثم تحولت - بعد قليل - إلى إمبراطورية عالمية كبرى ، فاقت جميع الإمبراطوريات العالمية القديمة : البارثية ، السلوقية ، الأخيمينية ، البابلية الجديدة ، الأكادية ، الفارسية ، الرومانية .

فما هى الأسباب التى ساعدت على قيام تلك المعجزة ؟!

لا سبب أبداً إلا الإسلام !.. وإلا القرآن ! ..

وإلا صنع المعجزة التى هى من صنع السماء !!

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-٢-

آمنت بالله !..

آمنت بالإسلام !..

آمنت بالقرآن !..

لقد عاشت اللغة العربية لغة أمة فقيرة فى الجاهلية - وقبل ظهور الإسلام - لغة محدودة يتكلم بها عدد قليل من الناس !..

ونزل القرآن - وهو كتاب عربى مبين - يحمل الهداية والنور إلى الأرض ، ويؤدى إلى الإنسانية رسالة السماء : ورسالة الإسلام ! ..

ومرت بلغة القرآن الكريم سنوات وسنوات !..

وإذا هى اللغة العالمية الأولى ، يتكلم بها الخليفة الأموى فى عاصمته دمشق ، وتتكلم بها جيوشه وولاته من الصين إلى شاطىء المحيط الأطلسى ، ويتعلمها أكثر سكان العالم ، ويقبلون عليها ، ويتخذونها لغة جديدة لهم ، وتصبح هى اللغة الرسمية لجميع شعوب العالم الإسلامى !..

ويترك الكثير من الشعوب لغتهم الأصلية ، لأنهم اختاروا مكانها اللغة العربية !..

وتموت بعض هذه اللغات القديمة ، وتبقى بعضها بين الموت والحياة ، وتحدث ظاهرة فذة جديدة ، فى تاريخ اللغات ؛ لم تحدث - من قبل - لأية لغة أخرى ، ولا يمكن أن يحدث مثلها للغة من

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

اللغات إلا بعد مرور أجيال وقرون ، وأحقاب ودهور ، وأعمار وعصور !..

فماذا حدث ؟ وكيف حدث ذلك ؟

إنها معجزة للغة القرآن ! معجزة من الله !..

لا سبب ترجع إليه : إلا الإسلام وحده !..

وإلا القرآن الكريم : كتاب الإسلام الخالد ، ووحـى الله المبين ، المنزل من السماء ، على خاتم المرسلين : محمد بن عبد الله ﷺ.

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-٣-

آمنت بالله !..

آمنت بالإسلام !..

آمنت بالقرآن !..

لقد عاش العرب أجيالاً مديدة فى الجاهلية أمة بدوية ، ومجتمعاً صحراوياً لا يعرف للحضارة معنى !.. وظل كذلك قبيل وبعد ظهور الإسلام !..

وإذا هذا المجتمع البدوى الأمى ، تقوم فيه ثقافة من أعظم الثقافات ، فتنشأ فيه البحوث والعلوم والمعارف ، وتقوم فيه الجوامع والجامعات ، والمدارس والمكتبات ، وحلقات العلم !.. وينتقل من مرحلة البداوة إلى مرحلة الحضارة ، فى أمد محدود وزمن معدود !..

ومن شأن مثل هذا الانتقال أن يحتاج إلى قرون وأجيال ؛ ولكنه حدث فى أمد لا يمكن لخيال شاعر أن يتصوره ؛ فقامت المدن الكبرى ، والجامعات المثلى ، فى كل مكان من أنحاء الوطن الإسلامى الكبير !.. وأبدع العلماء المسلمون إبداعاً علمياً لم يكن له نظير فى تاريخ الحضارات القديمة !.. وقامت الصناعة ، وازدهرت التجارة ، وتقدمت الزراعة ، وشقت الطرق ، ونظم البريد ، وأنشئت الجيوش ، وقامت المصانع ، واستخرجت المعادن ، واستغلت المناجم !..

وهكذا ازدهرت الحضارة بفضل الإسلام العظيم ، والقرآن الحكيم !..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحينما كان الناس فى عاصمة شارلمان - لا الناس كلهم ، ولكن الإمبراطور وحاشيته وحدهم - يتعلمون الحرف ، ليعرفوا القراءة والكتابة ، كان العلماء المسلمون يجلسون فى بيت الحكمة ، فى بغداد ، ليترجموا الثقافات العقلية القديمة من اللغات العالمية الكبرى البائدة ، إلى اللغة العربية : لغة الثقافة والحضارة ، حينذاك .

وكانت البحار تموج بالسفن والأساطيل التجارية والحربية الإسلامية المتفوقة ، وكان التجار المسلمون يسيرون إلى كل مكان فى العالم ، وكانت الأموال الغزيرة تتدفق على ميناء البصرة ، وفى جيوب التجار من أهلها !..

وقد اشتهر البصريون بأسفارهم البحرية فى المحيط الهندى ، وفى البحر الرومى : " الأبيض المتوسط " وفى الخليج العربى ، وبحر القلزم ، وفى غيرها من البحار ؛ فازدادت حضارة البصرة ، واتسع البصريون فى المال والتجارة ، وأصبحت المدينة أكبر ما تكون عمراناً ، وأكثر ما تكون ثراء!..

وفى خلافة بنى العباس ، كان الخلفاء لا يولون عليها إلا أميرا من أمراء البيت العباسى .. وفى عام ١٧٦هـ دعا أميرها : جعفر بن سليمان ابن على ، خليفة المسلمين : هارون الرشيد لزيارة البصرة ؛ فقدم إليها . ويصف الجاحظ [١] ما قدم إلى الرشيد من طعام !..

١- ١٨٧ الحيوان - نشر الحلبى .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وحدث عن مواكب الخليفة فى هذه المدينة وعن عظمتها ولا حرج !..

ولما وليها محمد بن سليمان العباسى ، أهدى إلى الخيزران : زوج الرشيد ، مائة وصيفة ، فى يد كل واحدة منهن جام من ذهب ، وزنه ألف مثقال ، مملوء مسكاً (١) .

هذه هى مدينة البصرة وحضارتها !..

وحدث ولا حرج ، عن : بغداد ودمشق ، والقاهرة ، والقيروان ، وقرطبة ، وفاس ومكناس ، وعن جرجان والرى والرقة ، وعن مكة والمدينة والطائف ، وعما بلغه المجتمع الإسلامى من حضارة شاهقة ؛ لم يعرف التاريخ لها مثيلاً من قبل ، ولا من بعد !..

فكيف كان ذلك ؟! وكيف حدث مثل هذا التطور الحضارى الغريب فى زمن معدود ، وأمد محدود ؟!

لا سبب يفسره ، إلا الإسلام وحده !.. وإلا القرآن معجزة الله الخالدة !.. وإلا صنيع السماء ومعجزتها الكبرى : رسالة محمد بن عبد الله ﷺ .

١- (١١٥ ، رسائل الجاحظ - نشر السندوبى) .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

-٤-

آمنت بالله !..

آمنت بالإسلام !..

آمنت بالقرآن !..

لقد كان ما بين حصار المدينة فى غزوة الخندق ، وبين معارك المسلمين فى الشام مع الروم ، سنوات معدودات ، مرت خلالها أحداث وأحداث .

هذا كتاب من محمد بن عبد الله ورسوله ، إلى كسرى إمبراطور الدولة الفارسية :

" أدعوك بدعاية الإسلام ، فإنى رسول الله إلى الناس كافة " .

وكسرى فى مجلسه ، ورسول محمد بن عبد الله جالس فى المجلس ، والكتاب يقرأ على مسامع الإمبراطور العظيم ، حين كان السفراء يوقعون معاهدة سلام بين كسرى وهرقل : الإمبراطور الرومانى المهيب !..

وإذا كسرى يغضب ، ويمزق الكتاب ، ويرمى به ، لأنه رأى فيه اسم : محمد قبل اسمه : (من محمد بن عبد الله إلى كسرى أبرويز عظيم فارس)

ويصيح قائلاً :" يكاتبنى بهذا!! .. وهو عبدى !.. " .

ثم كتب لعامله على اليمن :

" ابعث إلى هذا الرجل الذى يزعم فى الحجاز أنه نبى " .

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وبلغ الرسول - صلوات الله عليه وسلامه - ما حدث ؛ فرفع يديه إلى السماء ، وقال :" اللهم مزق ملكه ، كما مزق كتابى ".

ومزق الله ملكه ، وورثه المسلمون العرب فى أقل من سنوات !

وهذه جيوش المسلمين - فى الشام - تسير من فتح إلى فتح ، ومن نصر إلى نصر ؛ وأمامها أضخم الفرق العسكرية الرومانية المدربة ، وعليها قترة الهزيمة ، وعار الخذلان !..

ويأسر الروم فى معاركهم جنديا عربيا .. أهله فى حزن عليه !.. ويعلم الخليفة : عمر بن الخطاب بالأمر ، فيبعث إلى هرقل - الإمبراطور الرومانى - الذى يقود بنفسه المعارك ضد المسلمين ، يبعث إليه برسالة ، يقول فيها :

" بسم الله الرحمن الرحيم " ، الحمد لله رب العالمين ، والصلاة على رسوله . من عبد الله : عمر بن الخطاب ، إلى هرقل ملك الروم : أطلقوا الأسير المسلم : عبد الله بن حذافة ، حين وصول كتابى هذا إليكم ...

فإن فعلتم ، رجوت الله أن يهديكم الصراط المستقيم !..

وإن لم تفعلوا ، فإننى أبعث إليكم رجالا لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الجهاد فى سبيل الله ".

ويقرأ هرقل الرسالة ، ويرتعد فرقا وخوفا ، ويأمر بإطلاق سراح الأسير ، ويستقبله مكرما له ، ويبعث معه بهدية ثمينة إلى عمر !..

وتتوالى الهزائم على جيش هرقل ، ويغادر أرض الشام باكيا حزينا ، إلى إنطاكية !..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم يأمر الإمبراطور بعقد مجلس حربى أعلى .. وينعقد المجلس ، ويقبل هرقل على قواده ، يقول لهم :" ويلكم !.. "

أخبرونى عن هؤلاء القوم ، الذين يقاتلونكم : أليسوا بشرا مثلكم ؟

قالوا : بلى .

قال : فأنتم أكثر ، أم هم ؟

قالوا : بل نحن أكثر منهم - أضعافا - فى موطن !

قال : فما بالكم تنهزمون ؟!

فرد على الإمبراطور أكبر قواده ، وقال له :

أيها الملك : هزمنا !..

وانتصروا : من أجل أنهم يقومون الليل !..

ويصومون النهار !.. ويوفون بالعهد ! ..

ويأمرون بالمعروف !.. وينهون عن المنكر !.. ويتناصفون بينهم !..

ومن أجل أنا نشرب الخمر !.. ونزنى !.. ونركب الحرام !..

وننقض العهد ، ونغضب !.. ونظلم !.. ونأمر بالسخط !..

وننهى عما يرضى الله ..! ونفسد فى الأرض !..

كيف حدث ذلك ، وكيف كان هذا التطور السياسى والدولى العجيب ، لأمة الإسلام ، ولدولة المسلمين ، فى زمن يسير ؟

ليس هناك من سبب إلا الإسلام !.. وإلا القرآن ! ..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

وإلا أن ما حدث كان معجزة من السماء ، وأمرا من صنع الله سبحانه وتعالى : أحكم الحاكمين !..

-٥-

آمنت بالله !..

آمنت بالإسلام !..

آمنت بالقرآن !..

انظروا أيها الناس : يا ورثة الإسلام . يا أبناء العرب الأولين الفاتحين . انظروا إلى الدين : كيف بدأ ؟ وإلى أى شىء آل أمره ؟!

يروى عفيف بن قيس الكندى ، فيقول :

" كنت - فى الجاهلية - عطاراً !.. فقدمت مكة !.. فنزلت على العباس بن عبد المطلب ...

فبينما أنا جالس عنده ، أنظر إلى الكعبة ، وقد تحلقت الشمس فى السماء ... أقبل شاب كأن وجهه القمر ، حتى رمى ببصره إلى السماء ، فنظر إلى الشمس ساعة !..

ثم أقبل حتى دنا من الكعبة ، فصفّ قدميه حتى يصلى !..

فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية ، فقام عن يمينه !..

فجاءت امرأة متلففة فى ثيابها ، فقامت خلفهما !..

فأهوى الشاب راكعاً ، فركعا معه !..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

ثم أهوى إلى الأرض ساجداً ، فسجدا معه !..

فقلت للعباس : يا أبا الفضل : أمر عظيم !

فقال : أمر - والله - عظيم !.. أتدرى من هذا الشاب ؟

قلت : لا قال : هذا ابن أخى : محمد بن عبد الله ..

أتدرى : من هذا الفتى ؟ قلت : لا ..

قال : هذا ابن أخى : على بن أبى طالب ..

أتدرى : من المرأة ؟ قلت : لا ..

قال : هذه ابنه خويلد : هذه خديجة : زوج محمد هذا !.. وإن محمداً هذا يذكر أن إلهه : إله السماء والأرض ، أمره بهذا الدين ، فهو عليه كما ترى ، ويزعم أنه نبى !..

وقد صدقه على قوله : على ابن عمه - هذا الفتى ، وزوجه : خديجة - هذه المرأة ..

هذه هى أول صورة للإسلام ، فى بدء أمره .

أما الصورة الثانية ؛ فهى ما يرويه المؤرخ العربى الكبير : " أبو الفداء " - فى تاريخه - يصف عظمة خلافة الإسلام فى بغداد عام ٣٠٥ ، وسفراء قيصر الروم يدخلونها ، حاملين رسالة من ملكهم ؛ إلى الخليفة العباسى : المقتدر بالله !..

يقول أبو الفداء : فى وصف الموكب الرسمى ، الذى ساروا فيه إلى قصر الخليفة ، وما كان عليه القصر من عظمة :

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

" قدم رسل ملك الروم إلى بغداد ، فلما استحضروا عبئت لهم العساكر ، وصفت الدار - قصر الخلافة - بالأسلحة وأنواع الزينة !..

وكان العسكر المصفوفون ، حينئذ - مائة ألف وستين ألفاً ، ما بين راكب وواقف !..

ووقف الغلمان ذو الزينة الباهرة ، والمناطق المُحلاة !..

ووقف الخدام بذلك ، وكانوا سبعة آلاف : أربعة آلاف خادم أبيض ، وثلاثة آلاف خادم أسود !..

ووقف الحجاب كذلك ، وهم حينئذ سبعمائة حاجب بأعظم زينة !..

وزينت دار الخلافة ؛ فكانت الستور المعلقة عليها ، ثمانية وثلاثين ألف ستر، منها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة من الديباج المذهب !..

وكانت البسط اثنتين وعشرين ألفا !..

وكان هناك مائة سبع ، مع مائة سباع !..

وكان من جملة الزينة شجرة من ذهب وفضة !..

وشاهد الرسل من العظمة ما يطول شرحه !..

وأحضروا بين يدى : المقتدر !.. وصار الوزير يبلغ كلامهم إلى الخليفة ، ويرد الجواب عن الخليفة .. "

سبحان الله ! ماذا حدث ؟ وكيف كان ذلك ؟!

إنه الإسلام !.. إنه القرآن !.. إنها المعجزة من السماء !..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner

لا شيء ! لا سبب !

لا أمر نعلل به هذه الظواهر الفذة فى تاريخ الإنسان والحضارة إلا سبباً واحداً : هو أن الإسلام والقرآن ، وهذا الدين العظيم ، خرج للناس طبقات جديدة من المسلمين : كانوا هم النموذج الأكمل للإنسان على ظهر الأرض !..

النموذج العظيم ، الذى لم ير التاريخ له مثلاً !

النموذج الرفيع الذى بنى قواعد الدين والملك والثقافة والحضارة فى دولة الإسلام ، وفى العالم كله على أسمى وأنبل وأطهر دعامة : من توحيد الله وعبادته ، ومن فضائل الإنسان الخيرة النبيلة فى نفسه ، ومن الإنسانية المهذبة المطهرة التى بنت للحياة منارة رفيعة كانت هى دولة الإسلام !.. وعقلاً حراً كريماً عظيماً : كان هو المسلم !..

ووجداناً حياً يزخر بأسمى مشاعر الحق والعدل والإحسان ، وهو : المجتمع الإسلامى الكبير ، الذى كان أهلاً لخلافة الله فى الأرض ؛ فورثه الله ملك العالمين !.. وورثه الأرض ومن عليها !.. وورثه الآخرة ونعيمها !..

إنه الإنسان المسلم الذى جلس إلى مائدة القرآن !..

وتخلق بأخلاق القرآن !.. وتأدب بآداب الإسلام !..

وكان رسوله محمد ﷺ خُلقه القرآن !..

الممسوحة ضوئيا بـ CamScanner